

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

الفائدة الخامسة: الحكمة في تعدد زوجات النبي عليه الصلاة والسلام

تنبيه: لا شك أن الكلام في شأن النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، ينبغي أن يكون مع التعظيم اللائق به، والمراعاة الكاملة لحرمة، فهو حبيب الله، ومن آذاه فقد آذى الله، ومن انتقصه فقد أهلك نفسه وخرج من الإيمان.

وأرجو أن يكون كلامي في هذه المسألة غير خارج عن التعظيم اللائق به عليه الصلاة والسلام، فأقول وبالله التوفيق:

إن تعدد زوجات النبي عليه الصلاة والسلام، وتخصيصه بجواز الجمع بين أكثر من أربع نساء في وقت واحد، فيه حِكْمٌ عديدة، لم أطلع عليها كلها - لقلة علمي - ولعله لا يوجد من يزعم أنه اطلع عليها. وقد ظهر لي والله أعلم بعض تلك الحكم، منها ما أخذته من كلام العلماء، ومنها ما لا أذكر أنني سمعته أو وجدته في كتاب.

فمن تلك الحكم أن العرب تتمدح بالرجولة والفحولة الكاملة، فالرجل العاجر عن إتيان النساء يكون في نظر الناس معيباً ناقصاً عن صفات الكمال الخلقية، كما أن العرج والعمى والجذام هي من النقائص والعيوب الخلقية أيضاً.

فكان في تعدد زوجاته - مع كونه لم يفعل ذلك إلا بعد بلوغ الخمسين من عمره الشريف - دليلاً على كمال جسده وقوته وسلامته من العيوب، بل في ذلك دليل على أنه فاق الناس في ذلك، فقد ورد في بعض الروايات

أنه كان يطوف على نسائه (وهنَّ نحو تسعة نساء) في ليلة واحدة، وهذا مما يعجز عنه معظم الناس ولو كان أحدهم في عنفوان الشباب.

ومن الحكم في تعدد زوجاته إنشاء روابط بينه عليه الصلاة والسلام - وهو نبي الله - وبين القبائل اللاتي تزوج منهن، وفي ذلك تقوية للدعوة، ونشر للإسلام، وانتشار للعلم في تلك القبائل.

وكذلك كان نساؤه الطيبات المباركات أمهات المؤمنين معلماتٍ لنساء الأمة، لاسيما في الأمور التي يعسر على المرأة أن تسأل فيها الرجال. فكيف عرفنا آداب العلاقة بين الزوجين، واستحباب أن يشارك الرجل في مهنة أهله، وكيف عرفنا كيف يتعامل الرجل مع زوجته في حال الطهر وفي حال الحيض وفي حال المرض، وماذا يحل وماذا يحرم من أمر النساء، وماذا يفعل من كان في الحج وحاضت زوجته المتمتعة بعمرة قبل الوقوف بعرفة أو بعده أو قبل طواف الوداع، وسائر ما لا يخفى على طالب العلم الحاجة إليه.

وبذلك كانت معظم هذه الأحكام منصوصة في الأحاديث، ولم تُترك إلى اجتهاد أحد من الصحابة، ولم يكن معرفة هذه الأمور منقولة من سيرة أبي بكر أو عمر مع أهل بيته، إذ القدوة العظمى هو رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولو كانت هذه الأمور نعرفها من سيرة الصحابة مع نسائهن لاختلفت الأمور اختلافا شديدا، ألا ترى أن فلانا من الصحابة ضرب زوجته، وفلانا قذف زوجته بالزنا، وفلانا ظاهر من من زوجته، فلذلك لم يكن في سيرة الصحابة الكرام في بيوتهم ما يُغني، ولا أقول هذا على وجه الانتقاص للصحب الكرام، بل لأن الصحابة رضوان الله عليهم هم أنفسهم بحاجة إلى أن يتعلموا أخلاق النبي وسيرته في بيته ليقتدوا به، إذ ليس شأنهم أن يبتدع كل منهم سيرة خاصة تكون قدوة للناس.

ولا يوجد في تاريخ البشرية فيما أحسب إنسان نُقلت لنا تفاصيل سيرته في جميع شؤونه حتى في كيفية عُسلِهِ، وفي آداب التحلي، كما نُقلت لنا سيرة رسول الله عليه الصلاة والسلام، ومن شاء فليبحث هل يجد شيئا في سيرة أحد من الصحابة أو غيرهم ذكُر تفاصيل حياته داخل بيته مع نسائه؟

ومن تلك الحكم أن تُنقل له سيرته العطرة المباركة في بيته، بما يشبه التواتر، وذلك أن نساءه توافرن على ذكر حُلُقِه في بيته مع أهله، وعبادته وقيامه الليل، وزهده في الراحة والملذات، فلم يكن يتحرى أطيب الطعام، ولم يكن يتحرى أن يمضي الليل مع الزوجة تاركا القيام والذكر والعبادة، بل أخبرت السيدة عائشة وهي أحب نسائه إليه بعد السيدة خديجة، مع ما اجتمع فيها من حداثة السن والجمال، أنه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلَّمَا كَانَ لَيْلُهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْرُجُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ إِلَى الْبَيْعِ فَيَقُولُ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَأَتَاكُمْ مَا تُوعَدُونَ عَدًّا مُؤَجَّلُونَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَآحِقُونَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَهْلِ بَيْعِ الْعَرْقَدِ)^١.

فكيف يترك زوجته الشابة التي تأتي نوبتها مرة كل تسع ليال ليخرج إلى مقبرة المسلمين ليسلم عليهم ويدعو لهم، لولا ما جبله الله عليه من تقديم الآخرة على الدنيا، ومن الرحمة بأموات المسلمين حتى يخرج إليهم في الليل ليدعو لهم، عليه الصلاة والسلام؟

فكان في تعدد الزوجات دليلا آخر على صدقه وزهده وتقواه، وذلك أنه لو كانت له زوجة واحدة فقط، ونقلت لنا سيرته في بيته وعبادته في الليل، لقلنا هذا خبر آحاد، ولظننا أنها روت شيئا وفاتتها أشياء، لأنها كسائر البشر تحتاج أن تنام قسطا من الليل، فما أدرانا كم رأته؟ وما أدرانا إن كان النبي نائما وقت نومها، ولم تر منه العبادة إلا وقت استيقاظها الذي قد يكون قليلا بالنسبة لسائر الليل؟

ولكن لما كانت نوبة إحداهن نحو مرة كل تسع ليال، فكيف يكون استعدادها للقائه عليه الصلاة والسلام، وشوقها له وترقبها هذه الليلة التي تنتظرها وتجهز نفسها لتكون مع زوجها الذي هو أحب الناس إليها، وهو أفضل البشر وأجمل البشر وأحسن البشر حُلُقًا وحُلُقًا؟ ففي تعدد الزوجات تيسير نقل زوجاته أمهات المؤمنين سيرته وعبادته وأخلاقه، إضافة إلى أموره الخاصة التي تدل على كمال بشريته، وكمال خلقته وسلامة جسده وعقله من كل عاهة وعيب ونقص وضعف.

^١ رواه مسلم في صحيحه.

ثم في تعدد زوجاته عليه الصلاة والسلام أيضا مزية كبيرة له، وهي أن نساءه لم يشغلنه عن طاعة الله^٢، ولم يكن ما يحصل منهن من الغيرة، والشجار - على قلته فيما أحسب - يشغله عن أعباء الدعوة وقيادة الأمة وإمامة المسلمين في الصلوات الخمس وتجهيز السرايا والغزو بنفسه لقتال أعداء الله، ولم يؤد شيء من ذلك إلى تشويش ذهنه ولا إلى الخروج عن حد الاعتدال والخلق الحسن، فلم يدفعه شيء من ذلك إلى شتم ولا لعن ولا ضرب ولا سوء خلق، ولم ينقل أنه حطّر زوجة من زوجاته لما بدر منها مما يزعجه. وفي ذلك دليل على وفور عقله وحلمه وصبره، إذ كيف يستطيع إدارة شؤون الأمة والدعوة والجهاد وتعليم الناس مع المحافظة على العدل بين النساء وتحمل ما يحصل بسبب الغيرة، مع قلة الأكل والزهد في الملذات، واحتمال أذى المنافقين.

ومن شاء فليُنظر حادثة الإفك، يجد أن رسول الله عليه الصلاة والسلام، لم يخرج بسبب هذا البلاء العظيم والإيذاء لأهل بيته، والفتنة التي كادت تنشب بين الأوس والخزرج بسبب ذلك، عن التصرف بحكمة وحسن خلق، ولم يترك ترجيح مصالح الدعوة، وتوحيد المسلمين، ولم يعجل بالانتقام ممن أساء إلى أحب زوجاته إليه، وهو أمر يعجز عنه معظم البشر. ثم لما نزلت براءة زوجته الطاهرة أم المؤمنين، لم ينتقم لنفسه، ولم يزد على تنفيذ حكم الشرع فيمن افتروا.

وليست هذه الرسالة موضع تطويل الأمثلة وذكر الروايات التي أقصدها، ولكن أهل العلم الذين يقرؤون هذه الرسالة سيستحضرون عند قراءة هذه الكلمات الأحاديث والحادثات التي أعنيها.

كما أنه خطر لي الآن أن تعدد الزوجات في حقه صلى الله عليه وسلم، هو رحمة بنسائه، إذ لو كانت له زوجة واحدة، تكون معه كل يوم وكل ليلة، فإن الحق الذي تُطالب به تجاه خير الخلق، الذي له أيضا حقوق الزوج، قد تعجز عن القيام بذلك على الوجه المطلوب منها، فمن التي تستطيع أن تكون مع رسول الله عليه

^٢ مع أن كثيرا من الرجال يحار أحدهم - ولو كان حليما - في التوفيق والعدل بين زوجتين، فكيف بمن له أكثر من ذلك؟

الصلاة والسلام كل يوم كما يليق به؟ فكان في توزيع الوقت عليهن رحمة بهن من أن تقع إحداهن في تقصير يؤدي إلى هلاكها. ألا ترى أن السيدة عائشة رضي الله عنها كانت تؤخر قضاء ما يفوتها من رمضان إلى شوال خشية أن يمر بها رسول الله عليه الصلاة والسلام لأمر يريده فلا تكون معه على ما يريد بسبب الصوم؟ ثم لما مات رسول الله عليه الصلاة والسلام، صارت تبادر بقضاء ما يفوتها من رمضان لأن سبب التأخير لم يعد موجودا.

ويستثنى من ذلك السيدة خديجة رضي الله عنها، فإن النبي عليه الصلاة والسلام عاش معها نحو خمس وعشرين سنة، ولم يكن له - في نفس الوقت - زوجة غيرها، مع أنها كانت أسنَّ منه بخمس عشرة سنة، وكانت أول من آمن به - كما قال بعض العلماء - وواسته بنفسها ومالها، وكان له منها عدة أولاد، فخصها الله بما لم يعطه أحدا من نساء الأخريات، والذي نعتقده أن الله أعانها على القيام بحقوق رسول الله - عليه الصلاة والسلام - عليها، ولا نعلم رواية تذكر أنه كان منها تقصير أو كلمة لا يليق أن تقولها له، ولا تصرّف يقصُر عما ينبغي أن تعامل به رسول الله عليه الصلاة والسلام.

فهذه حالة خاصة، وليس كل النساء الصالحات في قمة الصبر والكمال والتناهي في جميع الفضائل وخصال البرِّ والتَّقوى الذي خص الله به القليل من نساء البشر^٣.

فلولا أن رسول الله عليه الصلاة والسلام عدد الزوجات لفات الأمة خير كبير، ولما عرفنا كثيرا مما نحتاج معرفته من سيرة النبي في بيته، ولعل ذلك ثلث أو نصف عُمر النبي عليه الصلاة والسلام.

^٣ شرح النووي على مسلم [شرح الحديث] (كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ عَيْرُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ وَأَسِيَةَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ) يُقَالُ كَمَلَ بِفَتْحِ الْمِيمِ وَضَمِّهَا وَكَسْرِهَا، ثَلَاثُ لُغَاتٍ مَشْهُورَاتٍ، الْكَسْرُ ضَعِيفٌ، قَالَ الْقَاضِي: هَذَا الْحَدِيثُ يَسْتَدِلُّ بِهِ مَنْ يَقُولُ بِنُبُوَّةِ النِّسَاءِ وَنُبُوَّةِ آسِيَةَ وَمَرْيَمَ، وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهُمَا لَيْسَتَا نَبِيَّتَيْنِ بَلْ هُمَا صِدِّيقَتَانِ وَوَلِيَّتَانِ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَفْظَةُ الْكَمَالِ تُطْلَقُ عَلَى تَمَامِ الشَّيْءِ وَتَنَاهِيهِ فِي بَابِهِ، وَالْمُرَادُ هُنَا التَّنَاهِي فِي جَمِيعِ الْفَضَائِلِ وَخِصَالِ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى.

والله أعلم، وأستغفر الله لما عساي أكون أخطأت فيه في هذه الرسالة، وأتمنى ممن يقرأ هذه الرسالة ويجد فيها خطأ أو سهواً أو لفظاً غير لائق بسيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يكتب لي فوراً، لكي أصلح الخلل، والله غفور رحيم.

يا أكرم الخلق ما لي من ألودٍ به سواك عند خُلُولِ الحادِثِ العميمِ

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على النبي المصطفى الكريم وعلى آله وصحبه.

كتبه أبو الطيّب يوسف بن عدنان المناوي

٢٧-٥-٢٠١٧

وأرجو ممن وجد خطأ أن يرسلني مشكورا

almunawi@hotmail.com

أو على الفيس بوك

<https://www.facebook.com/youssef.abuttayeb>

يمكن تحميل هذا الفائدة وغيرها قريبا من موقع الإمام المناوي

www.almunawi.com